

الباحث النفسي في دراسة الفنون

للدكتور أحمد محمد الحوفي
ألفاظي العربي ورئيس قسم الدراسات
لأدبية بكلية الولادة - جامعة القاهرة -

وقد لخص العقاد المذاهب النقدية في ثلاثة :
مدرسة التحليل النفسي ، ومدرسة الدراسة
الاجتماعية ، ومدرسة الأذواق الفنية .

وقال ان مدرسة التحليل النفسي هي اقرب
المدارس الى الرأي الذي ندين به في تقد المدب وتقدي
التراجم وتقدي الدعوات الفكرية جمما ، لأن العلم بنفس
الأديب او البطل التاريخي يستلزم العلم بمقومات هذه
النفس من أحوال عصره ، واطوار الثقافة والفن فيه ،
وليس من عرفنا بنفس الأديب في حاجة الى تعريفنا
بعصره وراء هذا الفرض المطلوب ، ولا هو في حاجة
إلى تعريفنا بالبواعث الفنية التي تمثل به من أسلوب
إلى أسلوب .

وللنقد مدرسة أخرى محترمة كثيرة الانصار في
العصر الحديث على الخصوص ، بعد استفاضة البحوث
حول الدعوات الاجتماعية ، وعلاقة الأديب بمطالب
عصره . وموقع الملاحظة على هذه المدرسة أن الذي
يعرفنا بأحوال المجتمع فحسب لا يستطيع أن يعرفنا
بأسباب الفوارق الكثيرة التي تشاهد بين عشرات
الأديباء من أبناء العصر الواحد ، ولا غنى له عن الرجوع
إلى « النفيات » مع التعويل على « الاجتماعيات » في
مسائل الأدب والتاريخ .

اتجه العقاد في أعماله الأدبية كلها الى استكناه
النفوس ، وتحليل نوازعها ، ورد ما يصدر عنها الى
بواعث قد تخفيها أستار من الأحداث والملابسات
وأحكام الناس ، فنراه في العقريات يدرس الشخصية
ومعالجها ، ويتلمس مفتاحها . ونراه في شعره وفي
تقده محللاً ومعللاً ومنقباً عن الدخائل : كأنما يفحص
بالمجهر عن شيء في سائل .

يقول في دراسته لجميل بشينة : « وقد عنانا في
هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية والمواد
الطبيعية في سيرة جميل بشينة ، وأن نفهم الأدب على
مصابح من علم النفس ، ومن حقائق الطبيعة ، فلا
نرجع به الى لفظ تلوكه الأفواه ، بل نرجع به الى
وشائع تمعز بالآيدان والأذهان (1) » .

ويقول صديقه الاستاذ محمد طاهر الجلاوي :
« وقفت في أيديينا في تلك الأيام قصة الأكاذيب للكاتب
الفرنسي بول بورجييه ، وهو من رواد القصة النفسية ،
فترأها العقاد ، وقرأها أكثر من مرة ، وكنا نعجب
لأحدانها التي تنطبق على ما نحن فيه ، ونتحدث عنها
فيما يبتنينا » .

والعقاد اعجاب كبير بهذا الكاتب ، فمذهب
القائم على التحليل النفسي هو مذهب العقاد الذي
يتحرأه في القصة وفي الشعر (2) .

(1) جميل بشينة 8.

(2) في صحبة العقاد للجلاوي 167.

وهذا رأي فائل ، لأن انعشق حبالة لبقاء النوع ،
قد يذهب العاشقان ضحية لها ، وقد يطغى فيه المصالح
والسلوقة والغضب على الرقة ولرضا واللين والانقياد.

- 2 -

اما العقاد فيرى (4) ان اجود الغزل ما عبر عن
عاطفة المتنزل تعبيراً صادقاً ، سواء اوصف المحبوبة
بالحسن العائق أم بالحسن المعتاد ، وسواء اكان رقبها
ام غير رفيق . فمحبون ليلى يقول :

كائن فوادي في مخالب طائير
اذا ذكرت ليلي يشد به قبضا
كائن فجاج الأرض حلقة خاتم
علي فما تزداد طولا ولا عرضا

ويعلق العقاد على أبيتين يقوله : ان قلب السامع
لينقبض ، وان صدره ليخرج لهذا الوصف ، ومع هذا
فأي شعر ابرع من هذا الشعر ؟ وأي شاعر أطبع
وأعيشق من المحنون ؟ .

فوالله ما فى القرب لي منك راحة
ولا بعد يسليني ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بآية حيلة
واي مرام او حظدار اخاطر

وليس العشق الصادق حين يشب أواره بالعاطفة
التي يود صاحبها دوامها ، ويستريح الى مناجاتها ،
ونتها هو غمة يود المبتهلي بها لو تنتفضي لساعتها ،
ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ، ولا يهنا بالغلبة
فيه ، لأنه هو الفالب وهو المغلوب ، وكانما ينزع نفسه
من نفسه ، فيضيق ذرعا ، كما قال المجنون
وهذا شسه يقول كاتسو لى

الشاعر الروماني : ايتها الالهة ان كان لك رحمة
بالقلوب الصدقة المشفقة بحق براءتي عليك الا ما
نظرت الى عذابي ، وريثت لما بي ، ومسحت عنى هذا
الوباء الماحق والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة التي
تسرت ورعتها في عروقي فشفت الهناء عن قلبي .

اما المدرسة الفنية فهي مدرسة البلاغة والذوق، ومدرسة المعانى الرائعة والتعبير الجميل، وهى تلجئنا لا محالة الى ذوق الأذىب وذوق الناقد على السواء، ومتى وصلنا الى الذوق فقد وصلنا الى النفيات، ووصلنا قبلها الى الاجتماعيات على لاحمال (3) .

وليس من غرض المفاضلة بين هذه المدارس ، او مناقشة العقاد فيما ذهب اليه ، بل ساكتفي بعرض اربعة نماذج من دراسات العقاد النافية في ميدان الأدب . حده ، واعقب على كل منها بما أراه :

النحوذج الأول
أحد الفرز

- 1 -

للقدماء رأيان مختلفان في أحسن الفزل وأجوذه ،
فمنهم من يؤثر الفزل الذي يضفي على المحبوب هالة
من الجمال ، فلا يتحقق بها عيوب ولا نقص ، حتى
ليحوز محبوبه مثلاً أعلى في الملاحة والحسن والاغراء .
وهو لاء يخلطون بين العشق والاستحسان ، وهم
في حقيقتهما مختلفان ، لأن الاستحسان قد يكون من
عاشق وقد يكون من غير عاشرق ، ولأن العشق ليس
معناه أن المرأة المعشوقه اجمل في نظر عاشقها من
كل امرأة ، فلا غرابة في ان يحبها وهو عارف بعيوبها ،
وعالم بمحاسن غيرها ، ولكنه لا يحبها .

ثم ان الحب قائم على الاضطرار لأعلى الاختيار ،
فاما رأى المحب سينات من محبوبه ، وبقى على حبه ،
كان هذا ادل على قوة الحبيب من استمراره مع
الاستحسان والاختيار .

ومعنى هذا أن المدرسة التي تجعل الاطماء والاستحسان مقياس الجودة في الفرز تجهل بواعث الفرز الحيد وتتعد عن حقائقه.

ومنهم من يتخذ رقة الغزل والمبالفة فيها مقىاساً
للحودة الغزل ، فالمحب الذي يبكي أغزل من لا يبكي ،
والذي يبكي كثيراً أغزل من يبكي قليلاً ، والذى يتذلل
ويتضرع أغزل من الذى يثور ويتبرم ، والذى يبسط
খده موطنًا لقدم محبوبته أغزل من يترفع .

(3) محله قافلة الـ بـ ست مـارس 1964.

(4) شاعر الفيل العقاد.

ثم يوزن العقاد بين قول جنادة العذري :

من جها ألمنى أن يلاقيتنى
من نحو بلدتها ناع فىتعاهـا
كيمـا أقول فراق لا لقاء لهـا
وتضمر النفس يأسا ثم تسلاهـا
ولو تموت لرأعني وقلـت إلا
يا بوس للموت ليـت الموت إيقـاها

وقول المحسنون :

ويبين قول كاتيولس : اني لاكره واحب ، تسألني
كيف ذلك ؟ من يدرى ؟ ولكنني احس بحقيقة هذا الامر
وشدة برحائمه .

ويخلص من الموازنة الى أن نعمت الحب بآنه داعية
ليس فيه شيء من الرقة والدمانة ، ولكنها وصف اتفق
عليه شاعر ان ليس بينهما جامحة من ذوق لففة ، او
وحدة زمن ، لأنهما اجتمعا على عاطفة انسانية صادقة ،
شاركتهما فيها كل الشعراه الذين جربوا العشق .

وإذا فالغزل الجيد هو التعبير الصادق عن الحب وعن نفسية المحب ، وهو بهذه المثابة كالبحر الذي تنبه فيه القول ، ويتسع للناقض ، ويجمع بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء .

ولهذا كان من الخطأ أن يحصره النقاد في قالب واحد وهيئة واحدة أو لون لا يتبدل .

- 3 -

ويبهدا خالف العقاد اصحاب الاستحسان .
واصحاب الرقة في نقدتهم قول جميل :
رمي الله في عيني بشينة بالقىدى
وفي الفر من انيابها بالقوادح

وذهب العقاد الى أن هذا البيت ادل على عشق
جميل من عشر قصائد غزلية تفيض بالرقة والثناء
والاستحسان ، لانه دليل على حب برج به ، وحار فى
الخلاص منه ، وغلب على مشيئته فيه ، وظن ان البلاء
كله من جمال تلك الثنایا وتبينك العينين ، فلم تبق له
من حيلة الا أن يسأل اثلاف هذا الجمال ، عسى ان
يطهق بعد ذهابه سلوه والراحة من بنواه .

فالبيت دليل على اعمق الحب وأصدق الغزل ،
ولك ان تقول انه غزل صادق من رجل سيء ، او انه
غزل صادق من رجل طيب في سورة الياس والجيرة ،
اما ان يكون مبطلا في عشقه وغزله لانه تمنى تلك
الأمنية ، فذلك غفلة عن العاطفة التي أمنته ، ولغو لا
صدق فيه .

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه الانانية .
ويتلمس الراحة بما استطاع من وسيلة ، ولو كان فيها
بلاء لم يهؤ ، الا انك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمانة ،
لأنه أحب وساق ذرعا بجهه ، وببلغ أقصى ما يبلغه
العاشق من التعلق بالمشوق والمحز عن الفكاك من
أوهاق ، فهى ان شئت أنانية ذئمة لا ترضى عنها
الأخلاق الكريمة ، ولكنك حب قوي ، وتعبير صادق عنه.

← 4 →

ثم تعمق العقاد فيما لم يتعقب فيه سواه ، اذ اورد قول كثير عزة .

الا ليتنا يا عز من غير رب
بعيران نرعى في الخلاء ونعزب
كلانا به عمر فمن يرثنا يقتل
على حسنها جرباء تعدى وأجرب
اذا ما وردنا منهلا صاح اهله
علينا فما نتفك نرمي ونضرب

ولم يعلق النقاد على الآيات بأكثر من قولهما إنها
أمنية سخيفة ، اذ تمنى كثير لنفسه ولمحبوبته الرق
والجرب والرمي والطرد وال المسيح ، فلم يبق مكروه لم
يتمكنه لها ولنفسه ، فصار جديرا بقول القائل : معداة
العاقل خير من مودة الاحمق .

يجمع الصدق والروعة معاً ، فيفلح مرة ويُخْفَق مرة ،
ويجيء في شعره الجيد ويجيء فيه غير الجيد .

لهذا كان هكلي محقاً في قوله :
« يجب أن نذكر أن قيماً وليلي وأنطوني وكيلو باترة
موجودون بيننا بكثرة لا تخطر على بالنا ، وذلك أنه
يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى
عمق عواطفهم ، وكل سائله في هذا أن يحدس
ويستنتج من تصرفهم وكلامهم ، لأن الفاظهم في الأكثر
والأعم لا تستوعي الانتباه ، إذ أن التعبير الرائع هبة لم
يمنحها الخالق إلا نة نادرة من الناس ، فليس ضعف
التعبير دليلاً على ضعف الشعور ، بل من المؤكد أن
عدد المعتبرين في جمال فني أقل بكثير جداً من عدد
المحبين » .

ولو ان الصدق الشعوري والصدق التعبيري
هما وحدهما المقياس الذي تقيس به الجودة لكانـت
قصائد الشاعر المحب على درجة واحدة ، فلا تستطيع
ترجيع قصيدة على قصيدة ، ولكن الواقع غير ذلك ،
لأنـنا حينـما نقرأ شـعـرـاً عـرـوـةـ بـنـ حـزـامـ أوـ قـيسـ أوـ جـمـيلـ
أـوـ العـبـاسـ بـنـ الـاحـنـفـ مـثـلـاًـ نـفـضـلـ قـصـيـدـةـ عـلـىـ أـخـرـىـ ،
ذـلـكـ اـنـتـهـاـ لـمـ تـكـفـ بـصـدـقـ الشـعـورـ وـصـدـقـ التـبـيرـ ، بلـ
اضـفـنـاـ يـهـمـاـ مـقـيـاسـ آـخـرـ يـتـصـلـ بـالـافـتـنـانـ فـيـ تـخـيـرـ
الـلـفـظـ ، وـأـنـقـاءـ الـعـبـارـةـ ، وـبـرـاعـةـ التـصـوـرـ ، وـحـلـاوـةـ
الـجـرـسـ . وـمـعـنـيـ هـذـاـ اـنـاـ اـضـفـنـاـ إـلـىـ الـمـذـهـبـ النـفـسيـ
الـمـذـهـبـ الـفـنـيـ .

النموذج الثاني

ابو نواس والترجسية

فصل المقادير البحث في الترجسية من حيث
دلائلها وتشابها وبواعتها ومظاهرها ، معتمداً على آراء
الثقافات من علماء النفس المحدثين .

ثم حاول تطبيقها على أبي نواس (7) ، فأليسـهـ
توبـاـ فـضـفـاضـاـ لـاـ يـسـجـمـ عـلـىـ قـدـهـ ، وـحـكـمـ عـلـيـهـ اـحـكـاماـ
تـخـرـجـ بـهـ عـنـ سـمـتـهـ وـحـدـهـ .

— 1 —

فالترجسية شذوذ دقيق يؤدي إلى ضرر شئ
من الشذوذ في غرائب الجنس وبواتع الأخلاق ، لأنـهاـ

وعقب العقاد على هذا بأنـهمـ صـادـقـونـ ، لأنـهـ ماـ منـ
آمنـيـةـ أـدـعـىـ إـلـىـ الضـحـكـ وـالـسـخـرـيـةـ مـنـ هـذـهـ الـآـمـنـيـةـ .

ثم تعلـلـ إـلـىـ نـفـسـيـةـ كـثـيرـ ، ليـكـشـفـ عـنـ بـوـاعـثـ
هـذـهـ آـمـنـيـةـ الـحـمـقـاءـ ، فـرـدـهـاـ إـلـىـ قـمـاءـتـهـ وـدـمـامـةـ مـنـظـرـهـ ،
وـحـمـاقـتـهـ ، وـضـعـفـ حـيـلـتـهـ ، وـالـيـغـيرـتـهـ عـلـىـ عـزـةـ الـتـيـ كـانـ
يـخـسـىـ أـنـ يـفـلـيـهـ عـلـيـهـ كـلـ الـمـزـاحـمـينـ ، لأنـهـ أـجـمـلـ مـنـهـ
مـنـظـرـاـ . وـأـقـدـرـ عـلـىـ الـأـغـرـاءـ وـالـاستـهـوـاءـ ، وـقـدـ فـكـرـ كـثـيرـ
فـيـ الـوـسـلـيـةـ الـتـيـ يـأـمـنـ بـهـاـ عـلـىـ صـاحـبـتـهـ فـلـمـ يـجـدـ غـيـرـ
إـبـلـائـهـ بـالـبـلـاءـ الـذـيـ يـزـهـدـ النـاسـ فـيـهـ ، فـتـصـيرـ لـهـ
وـحـدـهـ ، لأنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـتـحـرـرـ مـنـ حـبـهـ ، وـلـاـنـهـ عـاجـزـ
عـنـ حـيـاتـهـ ، وـهـوـ لـاـ يـمـلـكـ مـاـ يـمـلـكـهـ غـيـرـهـ مـنـ
الـمـنـافـيـنـ .

علىـهـ أـنـ لـيـسـ يـسـتـبـعـدـ أـنـ كـثـيرـاـ رـأـيـ الـبـعـيرـيـنـ
الـمـوـصـفـيـنـ رـؤـيـةـ الـعـيـانـ ، لأنـ هـذـاـ مـنـظـرـ يـنـسـدـرـ
يـشـاهـدـهـ أـبـنـ الـبـادـيـةـ مـرـاتـ ، فـخـيـلـ إـلـيـهـ أـنـهـمـ سـعـيـدانـ
حـيـثـ يـسـرـ حـانـ وـلـاـ يـطـلـبـهـمـ رـاعـ وـلـاـ مـالـكـ ، فـتـمـتـىـ
الـسـعـادـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـتـوـالـ .

وـاـذـاـ كـانـ سـخـيـفاـ فـيـ آـمـنـيـتـهـ – وـلـاـ شـكـ فـيـ ذـلـكـ
فـهـوـ مـحـبـ صـادـقـ فـيـ التـبـيرـ عـنـ حـبـهـ ، فـلـاـ عـلـاقـةـ بـيـنـ
سـخـفـ آـمـنـيـتـهـ وـأـتـهـامـ عـاطـفـتـهـ ، لأنـهـ أـحـبـ فـنـقـصـهـ الـحـبـ،
وـحـرـمـهـ الـرـاحـةـ مـنـ طـرـيقـ غـيـرـ هـذـاـ الـطـرـيقـ .

— 5 —

وـمـنـ هـذـاـ يـتـبـيـنـ أـنـ الـعـقـادـ أـرـجـعـ جـوـدـةـ الـفـزـلـ إـلـىـ
يـنـبـوـعـ الـفـزـلـ نـفـسـهـ وـهـوـ الـحـبـ ، وـالـيـغـيرـتـهـ عـلـىـ صـدـقـ التـبـيرـ عـنـ
الـحـبـ ، فـاـذـاـ كـانـ الشـاعـرـ مـحـبـ وـعـبـرـ عـنـ حـبـهـ فـيـ صـدـقـ
فـزـلـهـ جـيدـ ، وـاـذـاـ كـانـ غـيـرـ مـحـبـ أـوـ كـانـ مـحـبـ لـمـ يـسـتـطـعـ
الـتـبـيرـ عـنـ حـبـهـ فـزـلـهـ رـدـيـءـ .

لـكـ هـذـاـ الـمـقـيـاسـ – عـلـىـ أـنـ قـيمـ – لـيـسـ دـقـيقـاـ
الـدـقـقـةـ كـلـهـ ، لأنـهـ يـعـوـزـ شـيـءـ آـخـرـ هوـ جـوـدـةـ التـبـيرـ عـنـ
الـعـاطـفـةـ الصـادـقـةـ ، وـبـرـاعـةـ تصـوـيرـ الـعـاشـقـ لـمـ يـجـيـشـ
بـنـفـسـهـ .

وـذـلـكـ أـنـ التـبـيرـ قدـ يـتـصـفـ بـالـصـدـقـ وـلـكـهـ لـاـ
يـتـصـفـ بـالـبـرـاعـةـ ، أـذـاـنـ الـمـحـبـ قدـ تـجـيـشـ نـفـسـهـ
بـعـوـافـ صـادـقـةـ ، وـيـحاـوـلـ تـصـوـيرـهـ بـفـنـهـ الـقـوـلـ فـلـاـ
يـسـتـطـعـ ، فـيـتـمـهـلـ حـتـىـ تـهـدـاـ نـفـسـهـ ، ثـمـ يـسـتـرـجـعـ مـاـ
مضـىـ لـيـعـرـ عـنـهـ تـعـبـرـاـ لـيـسـ صـادـقاـ فـحـسـبـ ، بلـ

(7) أبو نواس الحسن بن هانيء .

وبدأ في اختياره غلاما لا يحسن النطق بالراء
تكسيرا لها :

بكسر الراء وتكسيرا

يدعو مسمى إلى الحتف
وبدأ في اعجابه بالجدة التي كانت من خواص
صوته ، فقال في وصف غلام :

وبه غنة الصبا تعليها

جدة الاحتمام للتشرييف

وكذلك ذكر مثال الحسن في الذكور والإناث ،
في قوله :

ولو أنها في الحسن كانت كيوسف
وبليقين أو كانت كخط مثال
وقالت تزوجني على مهر درهم
لقلت أعزني عن فمهك غال

ثم ذكر العقاد أن الجارية جنان كانت أحب
معشوقاته إليه ، وإنها كانت تحب النساء وتميل
إليهن ، وظن أن كلف أبي نواس بها ربما كان من ظواهر
زرجسيته ، لأن لازمة التشخيص تتحقق بها على نحو
لا تتحقق بغيرها .

ورجع أن هيام بالجارية (حسن) راجع إلى تشابه
اسمها وأسمه ، حتى أنه تشفع بهذه المتشابهة في قوله:

ان لي حرمة فلو رعيت لـ
لا جوار ولا أقول قرابة
غير أنني سمي وجهك لـ
آخره في اللفظ والهجاء والكتابة

2 - وطبق عليه ظاهرة العرض ، ليبين أنه لم
ينظم شعرا في الخمرات أو الغزل أو المجنون إلا تبين
منه أن الجهر بالمحرمات أدنى إلى هواه من الاستمتاع
بهما .

وذلك أن بعض الناس قد يولع بالإباحية ويجاهر
باللذات ، ويطيب له الخروج على العرف وعلى المأمور ،
لهما هنهم على أنفسهم وعلى الناس ، فلا يبالون ، لأنهم
نسوا شخصيتهم ، وبعضهم قد يقترب هذا لتعاليمهم
على العرف وعلى الناس ، ولرغبتهم في تقرير
شخصيتهم .

ولم يكن أبو نواس من الفريق الأول ، لأن أخباره
وأشعاره تنفي ذلك عنه .

هيام الشخص بجسمه أو بنفسه إلى حد الاستفراغ
والعبادة والتدليل والعنق .

ولهما شباب عده ، تخbir العقاد منها ما يتصل
بدراسة أبي نواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها
شعبتان : أحدهما الاشتئاء الذاتي
والآخر التوثيق الذاتي
ومن أبرز ما يلازمهما ظاهرة التلبيس أو التشخيص ،
وظاهرة العرض ، وظاهرة الارتداد .

اما ظاهرة التلبيس أو التشخيص وهي عشق
الإنسان ذاته عشقا شهوانيا ، فالشاذ في حب جنه
أو حب الجنس الآخر يجد طبلته ، ويقضي مأربه ، أما
الذى يشتهي بدنه وليس فى وسعه أن يفضى مأربه
منه بغير التحايل على ذلك بالتلبس أو التشخيص ،
ولهذا يلبس شخصيته شخصا آخر يتوهم أنه هو ذاته
او يحله محل ذاته .

واما ظاهرة العرض فتشمل الأظهار بجميع
درجاته ، فقد يشاهد المصاب بها وهو يكشف عورته ،
ويعرض أعضاءه ، ويتعري من ثيابه ، وإن كان الأكرم
الأعم أن هذا لا يكون إلا في حالة الجنون وما يقاربه .

واما الارتداد فإنه يعتري الترجيبيين من تلبيس
ذواتهم بغيرهم ، او خلع ذواتهم على شخص آخر
يتلمسون المتشابهة بينهم وبينه ، فيتحول الترجيبي
صفة القوة من قوى يشبهه في القوام والملامح ، وبخلافه
في القوة ، او يخلع ذاته على امرأة مشتهاة يجد شبهها
بینها وبينه .

- 2 -

وقد حاول العقاد أن يطبق هذه الظواهر على أبي
نواس ، وأن يفسر بها جميع أحواله .

1 - فشل ذوذ الجنسي نرجسية مظهرها التلبيس
والتشخيص .

وقد بدأ هذا التشخيص في غزله حين اختار
لهواه غلاماً أثغر مثله ، وإن كانت لغة أبي نواس بالراء
ولغة الغلام بالسين :

وابا بي الشفه لا جحته
قال في غنج وانحناث

لما رأى من خلاقتي لـ
كم لقى الناث من النساء

تم ان حبه للجارية جنان لا ينبعىء عن تلبيس وتشخيص ، بدعوى أنها كانت تحب النساء وتميل البهمن ، فان حبها لم يكن مقصورا على النساء دون الرجال ، وهي في الوقت نفسه جارية مغنية لا يتطلب منها ان تنافس الحرائر ، او تكشف النساء بالعداء .

على انه احب الجارية دنانيز وتفزل بها ، وتغزل
بعشر من الجواري الحسان ، منهن عنان التي غلبته في
مساجلة بالأدب المكشوف على مسمع ومراى من وجوه
نفاد .

فلم يكن حب أبي نواس مقصورا على الجارية
جتان ، ولم يكن حبه لها عميقا طويلا الأجل ، فانه
احبها في مطلع شبابه ، ولم يليث حبه ان خمنت
جذبته ، وكان معاصره يشكون في صدق هذا الحب
وحرارته .

كذلك يبدو التكفل في الاستدلال على التشخيص
بيان أبا نواس هام بالجارية (حسن) لأن اسميهما
مت شباهان ، فان هذا الهيام واقع لا محالة ، سواء أكان
اسمها ذلك ام غير ذلك ، والا فلماذا هام بدنانير وعنان
وجنان ونرجس ، وليس بين اسمه وأسمائهن تشابه
او انفاق ؟

ومن التضييق على أبي نواس أن نحجر عليه
التلاءب بالاسمين المشابهين عن طريق المصادفة لا
عن طريق التعمد وال اختيار ، كما تلأب المتنبي فيما
بعد باسم سيف الدولة ، فشقق منه الواوا من المعانى
والأفكار والخيال .

2 - وعجيب أن يتخذ العقاد من مجاهرة أبي
نواس بخلاعته دليلاً على نرجسيته ، وعلى ظاهرة
العمررض :

فقد عرف العالم عشرات من الأدباء المولعين
بمثل هذه المجاهرة ، لأنهم يجدون فيها أنواعاً من
التعالي أو النظاهر أو التفرد بالخروج على المألوف أو
الاستهانة بالقيم التي يقدّرها المجتمع الغر .

من هؤلاء في الأدب العربي الأعشى وسجيم
وامرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة ونصيب وابن سكره
وكثير من شعراء البنيمة .

ومنهم في الأدب العربي بيرون وكازانوفا ، ولم يوصف واحد من هؤلاء أو أولئك بالترجسية أو بظاهرة من ظواهرها المعروفة .

وانما كان من الفريق الثاني المبالغ في تهتكه
ومجاهرته بما يقترب من آثام .

لَهُذَا يَقُول :

اًلا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سرا اذا امكن الجهر

ویقـول :

أطيب اللذات ما كسان -
جه سارا بافتخار

وله في هذا المجال شعر كثير.

3 - ثم حاول العقاد أن يطبق عليه ظاهرة الارتداد ، من وصف لنشاطه ، وكيف بال الخليفة الامين ، ولعله بالجارية حسن .

- 3 -

وليس من شك في أن العقاد كان بارعاً في هذه المحاولة ، إذ استطاع أن يلخص معالم الترجمة ، ثم حاول أن يطبقها على حياة أبي نواس وشعره . ولكن هذا لا ينفي أن في التطبيق الواضح من مظاهر التمحن والاعتراض .

وليس من الصواب أن يكون اعجاب أبي نواس بالبحة في صوت غلام آخر مظهراً للتشخيص ، فان مصدر هذا الاعجاب الاستسلام والاستطراف والارتياح إلى هذا الصوت ، وهو اعجاب صالح لأن يصدر عن أبي نواس وعن غيره من الرجال .

واما تمثيله للجمال الفائق بيوسف فانه تمثيل للتفوق والامتياز ، ولا دليل فيه على تشخيص وتلبيس ، اذ انه اراد ان يصور اصراره على رفض الزواج من المرأة التي وصفها ، مهما تبلغ من الاغراء ، فقال انها لو بلغت من الجمال أعلى درجاته ، ومهما يهبط مهرها الى أدنى درجاته ، فانه لن يرضها زوجة له . واذا كان قد ضرب المثال بيوسف وبيلقيس ، فان الشمراء والقصاص قد نصبوهما مثلاً أعلى للجمال .

واستنبط العقاد من هذا ان ملامح الترجسية تكاد تمثل من هذه الاوصاف ، فالبياض والرقمة والنعمومة والملاحة والشعر المتهلل أشبه ما تكون بملامح الفتى نرجس ، الذي هنا على الجدول فاستحال نرجس ، واتخذه الاسطوريون اليونان نموذجا للجمال . وقال ان اللثفة وبحة الصوت تشيران الى تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشاب الناضج .

ولكن هذا الحكم فيه تجوز كبير ، فليس من الحتم اللازم ان يكون بيان البشرة وغضارتها وتهلل الشعر علامة من علامات الترجسية ، فطالما اشتهر رجال من الشرق والغرب بصفات الملاحة والجمال ، وهم بعاء عن الترجسية ايمما بعد .

حسبنا ان نذكر منهم ابا القشير الذي فاخر ابا نواس بجماله ، ونصر ابن حجاج الذي افتتن به نساء المدينة ، فاضطرر الخليفة عمر بن الخطاب الى نفيه منها ، وذلك انه كان يمس في ليلة قيادته ، فسمع امراة تنشد شعرا وهي في بيتها ، منه :

هل من سبل الى خمر فأشربها
ام من سبل الى نصر بن حجاج؟

فلما أصبح الصباح استدعى نصرا ، فإذا هسو شاب جميل يفتتن بمثله النساء ، فأمر بحقن شعره ، وهو يزيد التقليل من جماله ، فازداد جمالا ، فأمر بنفيه الى البصرة منعا للفتنة .

ومنهم بايزرون ، فقد كان آية من آيات الجمال ، وكان شعره الذهبي يتهلل على جبينه في خصلات متوججة ، وله عينان زرقاواني يخالطهما لون رمادي ، وتحيط بهما اهداب غزيرة طوال ، وشفتاه قرمزيتان ، وانفه رقيق لطيف ، وقدم رشيق ، وبشرته شفافة كأنها البلور ، وصوته رخيم كأنه نعمات والحان . وأما اللثفة بالراء فانها اضطراب في النطق يصيب كثيرا من الناس ، وقد اشتهر بها واصل بن عطاء ، وكان يهرب منها باجتناب حرف الراء في دروسه وفي خطبه .

واما بحة الصوت فليست دليلا على تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشاب الناضج ، لأنها ضعف في الحنجرة يعتري بعض الأسوية الذين لا يوصفون بلون من الوان الانحراف ، سواء أكانوا من الذكران ام من الاناث .

وقد كان بايزرون (8) يجاهر بعلاقاته ، ويسجلها في شعره .

وعرض كازانوفا (9) قصة حياته عريانة في غير احتشام ، على ما فيها من مثالب ومخاز تحرر منها وجوه اكثر المجان من رجال ونساء ، ولم يكن غرضه تبرير احداه او التهوي من قيم المجتمع ، او الماهاة بما اتفق ، وإنما كان راوية دقيقة امينا لا يعنيه الا التسجيل للخير وللنشر وللحرام وللحلال .

3 - واذا كان ابو نواس جميل الوجه . حسن السمت ، ففترا بفراهة بدنـه ، فقد كان ابو القشير كذلك ، وكان يفاخر ابا نواس بجماليـه .

ذكر ابن منظور في اخبار ابي نواس : قال أبو القشير : نظمت الشعر وانا غلام وابو نواس غلام ، وكـنا جـمـيـعا نـضـرـبـ بالـمـعـودـ ، وـكـنـتـ اـحـسـنـ وجـهـاـ منـ اـبـيـ نـوـاسـ ، وـأـبـوـ نـوـاسـ اـطـيـعـ ، فـفـتـاخـرـنـاـ بـاـدـسـعـ وـغـيـرـهـ ئـهـ قـلـتـ لـهـ : اـنـيـ اـجـمـلـ مـنـكـ وـجـهـاـ ، فـقـالـ : بـلـ اـنـاـ اـحـسـنـ مـنـكـ وـجـهـاـ وـأـفـرـهـ .

والذي يتبع من هذه المفاحرة ان ابا القشير فاخر ابا نواس بجماليـه ، ولم يكن شعوره بتفوقه في الجمال ناشئا عن نرجسية ، وأن ابا نواس رد على الفخر بمثله وزاد عليه قوة جسمـهـ ، فلا دليل في هذا على نرجسية ابي نواس .

على أن كثيرا من الفلمان كانوا وما يزالون في هذه السن يتبا乎ون بجماليـهمـ وفراـهـةـ أجـسـامـهـ ، حتى يـعـارـضـونـ عـضـلـاتـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ ، وـحتـىـ ليـتـصـارـعـونـ وـيـتـسـابـقـونـ ، وـهمـ اـبـرـيـاءـ منـ مـرـضـ التـرـجـسـيـةـ وـاعـراضـهـ .

4 - اعتمد العقاد على وصف ابن منظور لابي نواس بأنه كان حسن الوجه ، رقيق اللون ايض ، حلو الشمائل ، ناعم الجسم ، منسل شعر الرأس ، الشغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفا ، وفي حلقـهـ بـحـةـ لا تفارقـهـ .

وذكر بعض ابيات لابي نواس ، كقوله :
تـيـهـ عـلـيـنـاـ اـنـ رـزـقـتـ مـلـاحـةـ
فـمـهـلـاـ عـلـيـنـاـ بـعـضـ تـيـهـكـ يـاـبـدرـ
فـتـدـ طـالـمـاـكـنـاـ مـلـاحـاـ وـرـبـمـاـ
مـدـدـنـاـ وـتـهـنـاـ ثـمـ غـيـرـنـاـ الـدـهـرـ

(8) بايزرون : امينة السعيد .
(9) كازانوفا : ستيفان زفافيج - ترجمة دار الهلال

اهدين اليه ، فيهن صبية حواء وعجزز هي احدي عينيها نكتة ، فتغطير من ذلك ، ولم يظهر لي امسره ، فلما مضت مدة سقطت لي ابنة من السطح ، وجفهاء القاسم ابن عبد الله ، فعزى الحادبين الى الحواء والعجزز ، وكتب الى بقصيدة ، منها :

ابها المحتفى بحوال وعسورة

اين كانت منك الوجه الحسان ؟
قد لعمري ركبت امراً مهينـا
ساعني منك ابها الخلصـان
فتحـك المهرجان بالحوال والـسوـر
ر ارانا ما اعقبـك المهرـجان
كان من ذلك فـدقـك ابـنـكـ الحـرـرـ
ة مصـبـوغـةـ بهاـ الاـكـفـانـ
وـتحـافـيـ مؤـمـلـ لـيـ جـلـيلـ
لـجـ فيـ الجـفـاءـ وـالـهـجـرانـ
خـبـرـ اللـهـ انـ شـامـةـ كـاـ
نـتـ لـقـومـ وـخـبـرـ الفـيـرـانـ
افـرـورـ الحـدـيـثـ يـقـبـلـ اـمـ مـاـ
قاـلـ ذـوـ الجـلـالـ وـالـفـرـفـانـ ؟

واذا فلا غرابة فيما قصوا من احداث تشاومه كقولهم أن ابا الحسن علي بن سليمان الاخفش غلام ابي العباس البريد ، كان شاباً ظريفاً ، وكان يعبث بابن الرومي ، فقرع بابه سحراً ، فقال له : من ؟ فيقول : تولوا لأبي الحسن : مرة ابن حنضلة . فيطير ابن الرومي ، ويقيم في بيته أيام لا يبرحه .

وقال علي بن ابراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري غالساً ، فإذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فامررت الغلام بالصعود الى السطح والنظر الى كل ناحية ، ليعرف من اين تأتينا الحجارة ، فعاد الي يقول : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت وقالت : انقو الله فينا ، واسقونا حرة ماء ، والا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا . فأرسلت اليها امرأة من عندنا بالماء والطعام ، فلما عادت قالت : ان الباب مقفل عليهم منذ ثلاث ليال يسب طيرة ابن الرومي ، لانه كان يلبس ثيابه كل يوم ويتعود ، ثم يمشي الى الباب والمفتاح معه ، فيوضع عينيه على ثقب الباب ، فتقع على جار له نازل بازائه وهو رجل أحدب يقعد كل يوم على الباب ، فإذا نظر اليه ابن الرومي رجع وخلع ثيابه ، وقال لا يفتح الباب احد (10) .

ذلك ليست الصغيرة المرسنه من شعر راسه دليلاً على ان اهله وجدوه شبهاً بالبنات ، فأرسلوا ضفيرته ، اذ ان بعض الناس كانوا وما زالوا يرسلون ذواب وضفائر للذكر الصغار ، للتدليل والتلميح فحسب . وان كان شكلهم بعد ما يكون عن الجمال وعن الشبه بالإناث .

ولهذا فلا مندوحة من العناية بالاحوال الاجتماعية والسياسية في دراسة شخصية ابي نواس ، لأن شخصيته ولidea نفسيته من ناحية ، وولidea بيته من ناحية .

ومعنى هذا ان نعتمد على المدرسة التفسيسية والاجتماعية معاً في دراسة شخصيته .

اما دراسة فنه فلا بد ان نعتمد فيها على المدرسة الثالثة وهي المدرسة الفنية مع هاتين المدرستين .

النموذج الثالث

طوير ابن الرومي

— 1 —

لم يعرض احد من القدماء او المحدثين الى دراسة ابن الرومي الا عرج على تطويره ، وضرب الأمثلة من حياته ومن شعره على تشاومه . واغلب الظن ان الاحداث التي ذكروها عن تطويره حقائق واقعة ليس فيها تزييد ولا مبالغة ، لانه هو نفسه سجل تشاومه في شعره ، ودافع عنه ، اذ كان يعرف من نفسه أنها شديدة الحذر ، ويرى ان الحذر سلم الى الامان :
فامن ما يكون المرء يوماً

اذا لبس الحذار من الخطوب

وكان يحتاج للطيرة ، ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفال ، ويكره الطيرة ، اثره كان يتفاءل بالشيء ولا يتغطرف من ضده ؟ وقال ان النبي من يرجل وهو يرجل ناقته ويقول يا ملعونة ، فقال : لا يصحبنا ملعون . وذهب الى ان الطيرة اصيلة في الطياع ، وان كانت اظهر في بعض الناس من بعض .
وذكر عنه عبد الله بن السائب انه دخل علينا يوماً مهراجان ، وعند عبد الله عدة من القيان الحسان

ان لي مثية اغبرل فيها
آمنا ان اساقط الاسعاض
وهي مثية تشيع في المصابين باختلال في
العصب او العضل .

وكان مسرفا في كل امر من اموره . لا تصدى
عزيزية ، ولا يرده ضابط ، كان مسرفا في طعامه وشرابه
وشهواته ، ومسرفا في تهممه وهجائه ونكاته ،
ومسرفا حتى في استئصاء المعانى ، ولا سبب لهذا
الاسراف الا توفر الحسن ، والاستجابة للرغبات ،
والعجز عن كبحها ، والانقياد لما تميله اللحظة الحاضرة

وفي رأى العقاد ان خصوص ابن الرومي لكل
احساس طارئ ، واستفراغه فيه ، لم يترك له منفذنا
إلى التفكير في عقابه ، وجعله لا يعادل عما يزنه له
الحسن والخيال إلى ما تميله عليه الحكمة والحكاثة .

واذا كان مزاجه قد اغرى بالاسراف فان اسرافه
جنى على مزاجه ، لأن اسرافه الموكل بالاستقصاء في
كل مطلب ورغبة خليق أن يسمى جسمه ، وينهك
اعصابه ، ويتحيف على صوابه ، وهو في الوقت نفسه
لم يسرف هذا الاسراف الا وفي جسمه سقم ، وفي
اعصابه خلل ، وفي صوابه شلل .

— 3 —

ويذهب العقاد الى أن العراء قد تختل اعصابه
فيتقلب جريئا جسورة عنيدا مقتحاما للمخاطر والأهوال ،
مستهينا بالعواقب وما يقترن بها من آثار ، وقد
تضرب اعصابه فيصير وديعا مطيا شديد الخوف
والحدر ، هيبا للصفائر ، مبالغا في حبان النتائج
والعواقب إلى حد التوهّم . وقد كان ابن الرومي من
الطراز الثاني .

كان مريض النفس مختل الاعصاب فتطير ،
والرجل السليم لا يتطير ، لانه يتوقع من الدنيا خيرا ،
ولا يحسن نفقة بينها وبين نفسه ، ولا يتسلف الفرع من
مكاره موهومه ، فإذا أصابه مكره تلقاه بعزيمة ضابطة
لمشاشرث فلا افراط في الجزع ، ولا استسلام
للفزع .

وذكروا ان أحد الامراء أرسل اليه خادما يستدعيه
اسم اقبال ، ليتفاوض باسمه ، فلما أخذ اهبيه نركوب
قال للخادم : انصرف الى مولاك ، فانت ناقص ،
ومعكوس اسمك (لا بقا) (11) .

وارسل اليه بعض أصحابه غلاما اسمه حسن .
فترق الباب عليه ، فقال : من ؟ قال : حسن ، فتفاوض
به وخرج ، وإذا امام الباب حانوت خياط صلب عليها
دراعتين بالهيئة اللام الف ، ورأى تحتها نوى تمر .
فقطط و قال : هذا بشير بأن لا تمرا ، ورجع ولـ
يذهب معه (12) .

— 2 —

وقف الدارسون على اختلاف اعصارهم عند هذا
الحد ، فلم يتجاوزه الى استثنائه تطير ابن الرومي ،
واستشفاف ما وراءه من عوامل كانت السبب في
نشاته وفي نمائه .

اما العقاد فانه لم يقنع بما قنعوا به ، فجعل يحلل
تشاؤم ابن الرومي ويعلل له ، ويربطه بعوامل نفسية ،
ويلازم بينها في دقة وحصانة ومهارة وتفيق .

ونستطيع ان نتبين من دراسته لتطير ابن الرومي
ان مراجعة الى نوع من الاختلال العصبي والاضطراب
النفسي (13) .

ذلك انه كان ضعيف الاحتمال لحرارة الصيف .
يعاني منها ما جعله يقول :

قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيف
فتمدو فلا ترده البطيء
يا عليما بما اكبد فيك
لا تعاونه ان فيه اكتفاء

قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيف يهدو فلا
ترده البطيء وكان متوفرا الحس الى اقصى حد ، يهيج
اعصابه اهون مس ، ويستفزه ايسر حادث ، حتى ان
الروائح القوية كانت تؤذيه وتصلعه ، وهذا هو السبب
في ذمه الورد ومدحه الترجس .
وكانت مشيته - كما وصفها هو - مشية المختل
كانه بين يديه غربا لا يديره :

(11) العدد 1 / 40 .

(12) معاهد التنصيص 1 / 43 .

(13) ابن الرومي لعقد 65 ، 116 ، 117 ، 127 ، 130 ، 200 ، 209 .

ولم لا اتعلم قط من ذي سباحة
 سوى الغوص والمضموم غير مغالب
 فابسر اشفاقى من الماء اننى
 امر به فى الكوز من المجائب
 واخشى الردى منه على كل شارب
 فكيف بأمنية على نفس راكب؟

اظل اذا هزته ربيع ولايات
 له الشمس ملواجا طوال الغواب
 كأنى ارى فيهم فرسان بهم
 يلوحون نحوك بالسيوف القواض

— 5 —

ذلك تعليل العقاد لتطير ابن الرومي ، وهو تعليل
 في رأيه صواب كله ، لأن مردہ الى نفسية الشاعر لا
 الى مؤثرات أخرى من السياسة والمجتمع .

اما اذا اردنا دراسة ثمرة المتظير فالاجدر بنا
 ان نبني دراستنا على المذهب النفسي والمذهب الغنوي
 والمذهب الاجتماعي جميا .

النموذج الرابع

ولع المتنبي بالتصفيير

— 1 —

كان ابو الطيب مولعا بالتصفيير الى حد لم يعائه
 فيه شاعر ، ولم يخف هذا الولع على دارسيه ، ولكنهم
 اذ تنبهوا للظاهرة لم يتعمقوا في التعليل لها .

وحسينا ان ابا العلاء اجاد ابن القارح حينما
 سأله عن هذه الظاهرة بقوله : « كان الرجل مولعا
 بالتصفيير ، لا يقنع منه بخلسة المغير ... ولا ملامة
 عليه ، انما هي عادة صارت كالطبع تفتقر مع المحسن ». — 2 —

ويبلق العقاد على كلمة الميري بقوله : لا شك
 انها عادة كما قال الميري ، ولكن اي عادة هي ؟ امسن
 عادات اللفظ ؟ أم من ضروريات الوزن ؟ أم من عادات
 اللسان ؟

ويجيب بقوله : لا ، ولكنها فيما نظن عادة في
 الطبع والخلق ، وما صارت كالطبع كما قال الميري الا
 لأنها من الطبع ، وفيها ترجمة عنه ، ومجاراة لنوازعه .

وكثيرا ما تبلغ الطمأنينة بالرجل السليم الى
 التفاؤل المستسلم للأمن الصادق والكافر ، كما
 يستسلم المتظير للغرع والتوجه الصحيح والزائف .

— 4 —

وإذا فقد كان تطير ابن الرومي مظهرا لاختلال
 اعصابه واضطراب نفسه ، وكان ضعف اعصابه وشدة
 حذره ومزاجه المتشائم تربى له أن يتوجس الشر في
 كل شيء ، وأن يقلب الكلمة او الفكرة على ما تحتمله
 وما لا تحتمله من حالات ، ليستخرج منها ما يمكن ان
 تؤديه وتدل عليه ، وسرعان ما ينتقل ذهنـه بين المعاني
 ونظائرها وأشباهها ، وبين الكلمات وما يجاشـها
 وبشكلـ احرفـها وأوزارـها ، فلا يعزـه ان يعـثر بما
 يوافق نفسيـه الحذرـة .

ومن هنا كانت كلمة (جعفر) مثلاً تساوي عنه
 جاع وفر) وكلمة (الخان) تذكره بكلمة الخيانة :

فكم خان سفر خان فانقض فوفـهم
 كما انقض صقر الدجن نـوف الارانب

بل ان خيالـه المتشائم امتد الى تصحيفـ الكلمات
 فقال في القينة :

لا تلـع من تفـتـنه قـيـنه
 فـان تصـحـيفـ اسمـها فـتـنة

وقـال في شخصـ اـبـوه اـسـمه هـرـئـمة
 عـائـلـه دـهـرـه اـذـا سـطـعـ التـقـيـ

ـعـ بـعـنـيـ مـصـحـفـ اـسـمـ اـيـه

وـصـحـفـ اـسـمـ عـمـروـ اـلـيـ عـيـرـ فيـ قـوـلـه
 يا عـمـروـ لـوـ قـلـبـ مـيـمـ مـسـكـنـةـ

باءـ مـحـركـةـ لـمـ تـخـطـءـ الـفـقـرـ

ولقد استبد به الوساوس في اواخر حياته ،
 فصار آفة غلابة على اقواله وافعاله ، لا محيس له عنها ،
 فأفقرـه فيـ الطـيـرةـ ، واشتـدـ خـوفـهـ منـ المـاءـ ، حتىـ كانـ
 لا يركـبـ سـفـيـنةـ مـهـماـ تـكـنـ مـامـونـةـ ، وـمـهـماـ يـكـنـ فيـ
 رـكـوبـهاـ منـ اـغـراءـ ، يـدلـ علىـ هـذـاـ قـوـلـهـ فـيـ وـصـفـ سـفـرـ
 بـدـجـلـهـ :

وـاماـ بـلـاءـ الـبـحـرـ عـنـديـ فـانـهـ
 طـوـانـيـ عـلـىـ روـعـ مـنـ الـرـوـحـ وـاقـبـ
 وـلـمـ لـاـ ، وـلـوـ الـقـيـتـ فـيـ وـصـخـرـةـ
 لـوـافـيـتـ مـنـهـ الـقـمـرـ اـوـلـ دـاـسـبـ

وَكَمَا تَقُولُ فِي أَهْلِ زَمَانَةٍ .

ذلك تعليل العقاد لولع المتنبي بالتصفير ، ولا
شك انه تعليل صادق ، لانه ارجع التصغير عند المتنبي
الى شعوره بالعظمة والى ازدرائه الناس .

ولكن المقاد تجاوز عن عامل آخر ربما كان ادعى الى ولوع المتنبي بالتصغير من هذه العظمة المصطنعة التي سمازحها احتقاره للناس .

وذلك أن المتنبي فيما أرى كان ينفس بهذا التصغير عن موجده وحفته وشعوره بالعجز عن تحقيق ما يشهاه ، فقد ذم الحياة ، وادعى أنها لا تواتي إلا الآفاساء والحمقى ، كقوله :

فما ترجى التفوس من زمان
احمد حالیه غیر محمد ورد
دفتره :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلب
على عينه حتى يرى صدقها كذلك

وقوله :

ری الدار اخون من موس
واخدع من کفة الحابسل

دفوله:

وَقْتُ لِي

وشبہ الشیء منجدب الیہ
وائشنا بدنزانما الطفام

ولو لم يعلم الا ذو محل
تعالى الجيش وانحط القتام

و لم يبرع الا مستحق
لته اسميه المسمام (١٤)

مِنْهُمْ اسَّامٌ (١٥)

وذلك حنق على الناس ، لأنهم نالوا ما لم ينل ، وبخاصة أصحاب الفتن والمجد والجاه ، وساء رأيه فيهم وفي أخلاقهم .

(14) المسام : الرعية . الضمير في اسمهم يعود الملوك المذكورين في أول القصيدة : اي لو كانت الإمارة بالحدارة لوجب أن يكون الملوك رعية وريعيتهم ملوكا لأنهم أحق منهم بالملك .

ثم يعمل لهذا الكلف تعليلاً تفرد به ، وذلك ان
المتنبي كان يتعالى بنفسه على التكب بالمدائح
والزلفى الى الملوك والامراء ، وكان يرى انه خلق لما
هو اجل ، وارفع من ذلك ، وهو امalk وقيادة ،
فلا يبالى ان يطول على ذوي السلطان بهذا الاعتقاد في
قصائده التي يمدحهم بها .

وكان يُؤْنِبُ نَفْسَهُ إِذَا مَا آتَى مِنْهَا رُكُونًا إِلَى حَيَاةِ
الدُّعَةِ ، وَاطْمَئْنَانًا إِلَى مَنَامِهِ بَيْنَ حَاشِيَةِ الْأَمْرَاءِ وَابْنِهِمْ
الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى عَطَائِهِمْ ، فَيَحْفَزُهَا وَيَنْجِهَا مِنْ هَذَا
الْمَقَامِ ، وَيَذْكُرُهَا مَا أَعْدَتْ لَهُ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعَظَمَةِ .

لكن المتنبي كان شريكاً في العظمة الدينية والأخلاق العلمية في كل ما هو من باب الشعور واللاحقة ، ولم يكن شريكاً في كل ما هو من باب الانحراف والتنفيذ . كان يشعر شعور عقلياء الأعمال ،

ويقيس الامور بمقاييسهم ، ويلزم نفسه الجد الذي يلتزمون في حركاتهم وسكناتهم ، وتساورةه المطاعم التي تساورهم ، ولكنه لا يتم الامر كما يعمونهسا ، ولا يسوس الحوادث كما يسوقونها . كان مطبوعات على غرار رجال المطاعم ولكن في داخل نفسه لا في ظاهر عمله ، فله في خلقه وتفكيره استعداد عظيم الاعمال ولكن بغير دأبة العظمة .

وإذا كان شعوره بالظلمة قد بدأ في المبالغة والتبييل والتخفيم أحياناً فان شعوره بالتأسف والاشمئزاز والتحقير قد بدأ في التصغير أحياناً أخرى ، فإذا ازدرى شيئاً ضئيلاً أو رجلاً حقيراً فذلك ازدراء يشوّه الضفن ، ويضاعفه ظل المظلمة الملقي عليه ، فإذا الشيء شيءٌ و/or إذا الرجل رجلٌ .

وأكثر ما يصغر المتبني حين يهجم مفiste محتنا ،
او ستحت متعالياً محقرها ، كما يقول في كافور ..

اوی اللئام کویفیر بمعنی ندرة
فی کل لوم و بعض العذر تغنى

وكما يقول في الشعر الذي نراجمونه :

افی كل يوم تحت ضبني شويع
ضعيف يقاويني قصير يطأول

من ذلك قوله :

أنا أنفس الآنيس سباع
يتغارسن جمرة واغتبلا
من اطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتنسى
أن يكون الفضنفر الرنبلا

وقوله :
إذا ما الناس جربهم لم يسب
فاني قد أكلتهم وذافها
فلم أر ودهم الا خداعا
ولم أر دينهم الا نفاقا

وقوله :
ولا تشك الى خلق فتشمت
شکوى الجريح الى الغربان والرخ

وقوله :
وكن على حذر للناس تستر
ولا يفرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة
وأعوز الصدق في الأخبار والقسم
فليس اذن على المتنبي ان يكلف بالتصغير ، لانه
في تعبيره لون من الهجاء والتحقير ، وضرب من
الاستهانة وقلة المبالاة ، ومبعد ذلك كله التنفيس عمما
يتعلق في نفسه من عوامل متعددة ، أهمها الفرور
والتعالي المصطنع ، والسلط على الحياة ، والموحدة
على الناس ، ولهذا يقول :

اذم الى هذا الزمان اهلي
فأعلمهم فدم وأحرزمهم وغض

واكرمهم كلب وأبصرهم عجم
واسهدهم فهد وأشجعهم قرد
على انتي لا اوافق العقاد في قوله « ان المتنبي
اذا ازدرى شيئا ضئيلا او رجلا حقيرا فذلك ازدراء
يشوبه الشفن » لأن المتنبي المتعاظم لا يضطعن على
رجل حقير ، وكيف يحقد على الحقير وهو لا يتطلع

الى او يياريه او ياليه ؟ بل يضطعن على العظيم لامه
قصر عن بلوغ غايته ، او لأن الحظوظ التي نولت هذا
العظيم أسباب علاه ضفت على المتنبي بما كان يصبو
اليه ويتشهاه .

واذا كان كلف المتنبي بالتصغير كان صدى لما
يعتمل في نفسه ، وكان صدى للحياة السياسية
والاجتماعية في عصره ، اذ كان عصر امارات وثورات
ووثبات الى الحكم هنا وهناك ، وكانت القوة والحلقة
والدهاء أهم الوسائل لفهم الطامحين الى الحكم ،
والطامعين في السلطان ، وكانت الاحقاد والدسائس
والتفاق والملق والمنافسات واستكانة الشعوب
واستبداد الحكام فاشية في المجتمعات .

النتيجـة

لعله قد تبين من هذه المحاجات ان الدراسة
النقدية لا يصح ان تتحضر في نطاق المدرسة النسفية
التي اثرها المقاد ، ولا يسوغ لمناقد ان يقتصرها على
أصول المدرسة الاجتماعية وحدها ، او يحصرها في
مجال المدرسة الفنية معزولة عن غيرها ، فانه لا
مناص من اعتماد المناقد على هذه المدارس جميعا ،
لان بعضها يخدم بعضها ، ولأن بعضها يجدي حيث لا
يجدي سواه .

واذا كان الاعتماد على المذاهب الثلاثة هو المنبع
السليم الكامل ، فإن الدارس او المناقد ليس محتمما
عليه ان يطبقها جميعا في كل حالة من الحالات ، فقد
يكون الاستثناء بمصالحها كلها هو الهايد الى
الطريق ، وقد يكون في مصباحين او مصباح واحد
غشاء .

وعلى الدارس والمناقد ان يتخير في دراسته
الاجتماعية والسياسية ما يتصل اتصالا وثيقا بالشخصية
التي يعرضها ، او النص الذي يدرسها ، وان يتبعد في
دراساته النفسية والفنية عن التكلف والاعتراض ، حتى
لا يلبس الشخصوص او يضفي على النصوص ارديمة
واسعة العرض ، او مفرطة الطول ، او ضيقة عن
القصدود .